

VI. بيداغوجية التحدي من أجل مدرسة المعرفة.

1. تذكير ببداغوجية الغباء

كما وضحناه في [الفصل السابق](#) الذي تغير بالمدارس العمومية هو ما أسميه **بيداغوجية التحدي** التي كانت متبعة بلأمس في مقابل **بيداغوجية الغباء** المتبعة اليوم، و التي تعتمد تدرّيس القواعد اللغوية قبل تمكّن التلميذ من اللغة من جهة و تغليب كفة المهارات على الكفايات في مادة اللغة و في مادة الرياضيات من جهة أخرى. فهناك فرق شاسع ما بين الطريقة التي **كان مطلوب** من الأساتذة التعامل بها مع تلاميذهم في تلك الفترة الزاهرة من أجل تمكينهم من كفايات القراءة و الكتابة و الحساب و من جملة من المعارف ، و بين **ما هو مطلوب منهم** اليوم و المكرّس بمحتوى كل مواد التدريس و بمضمون الكتب المدرسية المواكبة . و ألح عمدا هنا على عبارة **"مطلوب من رجال و نساء ا لتعليم..."** حتى أكد على عدم مسؤوليتهم فيما حصل و لا زال يحصل . لعمولفني فهم مقيدون دائما ببرامج و مناهج فوقية و ملزمون بتنفيذها تحت مراقبة المفتشين الذين يخضعون لنفس الالتزام مهما كانت نتائج تلك البرامج ومهما كان أثرها على مستوى تعلم و تكوين التلاميذ.

2. بيداغوجية التحدي

و من جهة أخرى و على عكس استصغار عقول تلاميذ الابتدائي كما بيناه في [الفصل الرابع من هذا العرض](#) ، فلمُنقخص لمنهجية التدريس و محتوى مواد سابقا، سرعجد أن بيداغوجية تلك الحقبة من الناحية السيكولوجية للطفل **كانت تتطلب من الأستاذ** التعامل مع عقل التلميذ تماما كعقل الراشد رغم صغر سنه . و يمكن تسميتها **"بيداغوجية التحدي"** من حيث كانت تثق في قدرات التلميذ الذهنية الطبيعية فتضعه رأساً أمام **رفع التحديات** باختباره في حل المشاكل الجدية و الصعبة في اللغة و في الحساب و في غيرهما، تماما كما يفعل أستاذ التربية البدنية مع كل الأطفال المبتدئين في كل أنواع الرياضات . و بذلك كانت تلك البيداغوجية تستطيع في ظرف وجيز إفراز فئة المتفوقين الموهوبين و فئة المتوسطين من بين تلاميذ كل قسم، انطلاقا من السنة الثانية ابتدائي و حتى من السنة الأولى.

3. مزايا بيداغوجية التحدي

و لقد انتهج المغرب بيداغوجية التحدي هذه بتلقائية قبل و بُعيد الاستقلال بعيدا عن تشويش تفلسف "العلماء" عليها في أبراجهم العاجية. و هذه البيداغوجية التي أصبحت و لا زالت منعوتة بالتقليدية من باب القدرح فيها، ينسى أو يتناسى من يحتقرها أنه بها تحققت في الماضي و على عكس ما يحصل اليوم ، نتائج مبهرة. و من خاصيات و مؤشرات جودتها ما يلي :

- 1) **أوجدت ثقة الأستاذ في قدرات تلاميذه** : و نذكر هنا أن بيداغوجية التحدي المسماة اليوم ببيداغوجية الكفايات ، تنطلق أساسا من الثقة المسبقة في توفر جل التلاميذ على قدرات عقلية و مؤلات ذهنية عالية و هائلة رغم صغر سنهم. و نجاحها بامتياز دل سابقا بالتعليم العمومي و لا زال يدل اليوم في التعليم الخاص على أن تلك الثقة في علو المؤهلات و القدرات الذهنية عند الأطفال في محلها، بالرغم من كل ما يأتي ضدها من المتفهمين في صوامعهم العاجية. بهذه الثقة في الأطفال **كان مطلوباً** من رجال و نساء التعليم العمومي سابقا و لا زال مطلوباً اليوم من زملائهم بالتعليم الخاص، إطلاق العنان للمتعلمين منذ الصغر في التحصيل و التمكن من كفاية القراءة و الكتابة و لكفاية الحساب كي يصلوا في ذلك إلى أقصى مدى مؤهلاتهم الذهنية. و مرة أخرى ذلك الذي لا يزال و سيظل مطلوباً من مدرب الرياضة الذي يطلق العنان للمتدربين الصغار ليصلوا في تمارينهم الممكنة لهم من الكفايات إلى أقصى مدى قدراتهم البدنية.
- 2) **سارت بكل تلاميذ القسم سير المتفوقين و المتوسطين من بينهم**: فلنسان حال هذه البيداغوجية كان يوحى لرجال و نساء التعليم السبي بتلاميذهم في التدريس سير متفوقينهم، و على الباقي من تلاميذ القسم الجري للحاق بهم.
- 3) **أتاحت روح المنافسة في التحصيل بين التلاميذ و على المراتب المتميزة بالقسم** : و هذه البيداغوجية التي احنقرت ظلما في التعليم العمومي و استبدلت بغيرها ، لا زالت إلى يومنا هذا متبعة بكل أنواع الرياضات من أجل إفراز الأبطال منذ الصغر. و هي التي أعطت و لا زالت تعطي أبطالاً من أمثال نوال المتوكل و عويطة و

الكروج في ألعاب القوى , و غيرهم في باقي الرياضات. و هي نفس البيداغوجية المتبعة التي يضطر صاحب كل مدرسة حرة إتباعها , لأنه لولاها لما استطاع توفير البديل الناجح عن مدرسة عمومية فاشلة بسبب بيداغوجية مغايرة . و باعتماد بيداغوجية التحدي يتبع صاحب المدرسة الحرة مصلحته المتطابقة تماما مع مصالح زبنائه.

(4) **أوجدت لكل تلميذ فرصة الوصول إلى أعلى مستوى يستطيع الوصول إليه :** و بما أن تلك المؤهلات الذهنية متفاوتة بصفة طبيعية من متعلم لآخر , تماما كتفاوت القدرات البدنية بينهم , كان يجد كل منهم في هذه البيداغوجية الفرصة و الفسحة السانحة ليتحدى نفسه و أقرانه في القراءة و الكتابة و الحساب و تحصيل مختلف المعارف و صقل المواهب من دون أن يحصره أحد كي يلحق به من هو من دون مستواه.

(5) **أتاحت فرصة النبوغ و بروز العبقريات :** كما هو الحال حتى اليوم بالنسبة للمتدربين في الرياضة , كانت في مدرسة الأمس تظهر عند بعض المتعلمين تتيح الصغار في الأقسام الدراسية كفايات تفوق أحيانا كفايات الأستاذ نفسه. فبتلك البيداغوجية كانت تتفوق العبقريات المخزونة في بعض الأطفال و تظهر من بينهم بوادرنخب المستقبل. و ذلك بفضل التمارين في كل المواد التي تكون كلها أو جلها تمارين في الكفايات أكثر من التمارين التطبيقية في المهارات. و كانت تمتاز كل تلك التمارين بتوفر فرص التحدي ابتداء من السنة الثانية ابتدائي. و كان يتدخل المعلم في التعليم كما يتدخل المدرب في الرياضة , فقط لصقل المهارات التي لوحظ فيها نقص عند المتعلم و تعوق تحسين مستوى الكفايات الملاحظة عنده. و هكذا كانت تلك البيداغوجية تفرز بعد خمس سنوات فقط من الدراسة بالابتدائي العمومي, تلاميذ يفهمون جيدا ما يقرؤون لا بالعربية و لا بالفرنسية و يجيدون الإبداع في الكتابة باللغتين و لا يقبلون في الحساب إلا برفع تحدي حل المسائل المستعصية كما كان رصيدهم المعرفي متميزا و ممتازا. و بفضل فرص التحدي التي كانت تمنحهم تلك البيداغوجية كان حبهم للتعليم كحبهم للرياضة. فلم تكن المدارس الحرة حينها إلا كمؤسسات ذات النفع العام تستقبل من حرم من التعليم العمومي بسبب تقدم سنه أو إخفاقه في مسابقة أقرانه بالمدرسة العمومية . و كانت جودة خدمات التعليم العمومي بفضل تلك البيداغوجية "التقليدية" ناجحة و ناجحة بكل المقاييس بالدرجة التي لم تدع معها مجالا و لا فرصة لإحداث تعليم حر تجاري ينافسها . و يشهد بذلك خروجها الذين هم في مختلف مراكز النفوذ بالبلاد منذ عقود و منها مركز النفوذ بالتعليم نفسه.

(6) **وفرت نشوة التدريس عند الأستاذ و متعة التعلّم م و التحصيل عند التلميذ :** و كل الأجيال التي تعلمت في الخمسينيات و الستينيات و السبعينيات تذكر بلا شك نشوة التعلّم بتلك البيداغوجية . كما تمتع معلموهم بنشوة مزاولة التعليم.

(7) **و مدت البلاد لعقود بطاقاته البشرية:** أفرزت و مدّت المغرب لفترة طويلة بكل طاقاته من الموارد البشرية التي بنته و بنت كل إداراته العمومية من شبه فراغ بعد جلاء الاستعمار عنه، و لا زالت حتى اليوم تسهم في بنائه و تطويره.

4. العيب الفريد في بيداغوجية التحدي

فلا يخلو منهج بشري مهما كان جيدا من عيب أو عيوب . فالكمال لله وحده . و العيب الفريد في هذه البيداغوجية كان يكمن في الإهمال في الطريق للمتعلمين من ذوي المؤهلات الذهنية المحدودة, و الذين كانت تجب العناية بهم من دون كبح جماح غيرهم من المتفوقين . فكانت تمتاز بفرز فئتي المتفوقين و المتوسطين من بين التلاميذ فتخصهم بالعناية الكافية بقدر ما كانت تتميز بإهمال الباقيين منهم.

5. المطلوب المهمل بالعلم العمومي و المعتبر بالتعليم الخصوصي

أ) بالمدرسة العمومية

الذي حصل مع الأسف الشديد لعلاج مشكل إهمال ضعاف التلاميذ بسبب العيب الفريد ببيداغوجية التحدي, هو المرور من تطرف إلى تطرف أسوأ منه. مر تعليمنا من دون رادع من **بيداغوجية التحدي** التي تسير بكل القسم سير المتفوقين على حساب ضعاف التلاميذ , إلى ما أسميته **بيداغوجية الغباء** المفرطة في العناية بضعاف التلاميذ على حساب المتفوقين منهم . فمررنا من سير كل القسم سير المتفوقين و المتوسطين من بين تلاميذه إلى السير به سير ضعافهم . كأنك في الرياضة تكبح جماح طموح المتدربين الموهوبين و

تتحصر بل تخنق رغبتهم في التعبير عن قدراتهم , من أجل أن يصل إليهم من هم من دونهم في القدرات البدنية.

و لا مسؤولية تماما لرجال و نساء التعليم من أساتذة و مفتشين في ذلك . فهم جميعا مطالبون بإتباع و تنفيذ المطلوب منهم و محاسبون على تنفيذ التعليمات الفوقية , و لا دخل لهم في النتائج . فهم مؤطرون في عملهم بالبرامج و المناهج المقررة و بالكتب المدرسية الموافق عليها من طرف المصالح الم ركزية بالوزارة . و كل هذه البرامج و المناهج و الكتب المدرسية تعتمد السير بالتلاميذ سير ضعفائهم , أو باعتبارهم كلهم من ذوي القدرات الذهنية المحدودة . فظل بذلك ينحدر مستوى التلاميذ سنة بعد أخرى , و أصبحت الامتحانات بمستواها الجيد غير قادرة على إفرار النسبة المطل وبة و العادية من الناجحين بمعدلات مشرفة . وبدلا من تغيير البيداغوجية القاتلة لجأت الوزارة في بادئ الأمر إلى تبسيط مستوى امتحانات من أجل الحفاظ على تلك النسبة و لو باحتساب التلاميذ الضعاف فيها . و لكن ظل المستوى ينزل إلى درجة أن حتى الامتحانات الجد المبسطة أصبحت عاجزة عن إفرار تلك النسبة التي لا بد منها من إجّل نقلها للإعدادي

و هكذا حصل في تعليمنا و بصفة مُمنهجة و من دون تتبع و لا مراقبة و لا محاسبة على حصل و ظل يستفحل، و هو **تسطيح مستوى المتعلمين من الأسفل Le nivelage par le bas**. فبدلا من أن ننهج بيداغوجية متوازنة يُترك فيها لكل متعلم أن يصل في تحصيله و تكوينه إلى أقصى حد من قدراته الذهنية مع دفع كل ضعيف للحاق بمن يستطيع اللحاق به منهم, أوقفنا حتى الانطلاقة في السباق إلى حين يتحرك أضعف التلاميذ من مكانه من دون أن يتعدى غيره مستواه . بمعنى أضعفنا مستوى فئتي المتفوقين و المتوسطين بكل قسم بمستوى الضعاف, فتوزع الضعاف بالتساوي التام و "ديمقراطيا" -حيث لا معنى للمساواة في الضعف و الغباء- بين أبنائنا و بناتنا بالتعلّم العمومي. و بقي التعليم الخاص لأبناء و بنات من يقدر على الأداء به حتى تتمكن فلذات كبده من تمتعهم بوجود فرص التحدي و إطلاق العنان لمقدراتهم الذهنية حتى تصل إلى أبعد مدى تستطيع أن تصل إليه.

فمن أجل العناية بضعاف التلاميذ تم إيدن إتباع تلك البيداغوجية المفرطة في استصغار المؤهلات الذهنية لكل التلاميذ طيلة حياته الدراسية بالابتدائي . ببيداغوجية الغباء هذه , أصبحت المدرسة العمومية تتعامل مع كل تلاميذها كرضع أو كعموقين ذهنيا حتى مع تقدمهم في السن وصولا إلى السادسة ابتدائي, باعتبار الوهم الذي به اعتبر عقل كل منهم هشا كبيضة دجاج, فيحشّى على إتلافه و تحطيمه بتمارين التحدي .
Enfant à priori mentalement fragile, à ne pas traumatiser par des exercices difficiles. و كأنك في الرياضة تحذر مسبقا للمدرب و تقول له "عظام أرجل هؤلاء الأطفال من قصب أو من الجبس, فاحذر من تحميلها في التمارين ما لا تطيق".

ب) بمدارس القطاع الخاص

الحكامة الجيدة الضرورية بالمدرسة الحرة حتى تبقى في السوق , تحتم صاحبها انتهاج هذه البيداغوجية المتوازنة, التي بها تفرز المتفوقين من أجل حسن الدعاية لها , و لكن من دون إهمال الباقين الذين لا تطبق المدرسة الحرة التفريط فيهم من حيث حجم المداخل التي يؤمنها لها الأداء عنهم . و مرة أخرى بسبب سوء الحكامة التي تطبع كل القطاع العام لا يوجد بالتعليم العمومي من يجد نفسه من مصلحته الخاصة لا إتباع بيداغوجية التحدي و لا البيداغوجية الفارقية , لأنه مهما كانت النتائج لا يوجد من يُحاسب عليها , كما حصل مؤخرا و يحصل دائما و على سبيل المثال , مع مدرب الفريق الوطني لكرة القدم. و كأنما كرة القدم أهم من التعليم.

6. آفة غياب مُحاسبة المتنفذين بالوزارة على نتائج تغويهم للبرامج و المناهج

و ما كان يمكن الاستمرار في إتباع تلك البيداغوجية الغير محسوبة العواقب لولا غياب مسؤولية و محاسبة المتنفذين في تعليمنا عن نتائج مردوديتها. في حين أبنائهم و بناتهم يدرسون بالتعليم الحر و ليس بالتعليم العمومي الذي يشرفون عليه فلا يصيبهم ما يصيب فلذات أكباد باقي المواطنين المحدودي الدخل . و لو وجد من يحاسب بهم

حينها عن نتائج تلك البيداغوجية لكان من مصلحتهم الاعتراض عليها وتقويمها من أجل بيداغوجية متوازنة. و لكن في غياب تلك المسؤولية ظل يتقهقر مستوى التلاميذ إلى مستوى أصبح معه من الضروري التغطية على ضعفهم باحتساب نقط المراقبة المستمرة المضخمة في معدلات امتحانات الانتقال من سلك لآخر . و بلغ اليوم تدني مستوى التلاميذ بالابتدائي إلى درجة الحاجة إلى تضخيم المعدلات العامة لتلك الامتحانات بنقط المراقبة المستمرة بمقدار 75% من أجل إفراز العدد الكافي من تلاميذ السادسة ابتدائي الواجب نقلهم للإعدادي.

و المطلوب في التعليم العمومي بعد تلك التجربة الفاشلة، كان هو **بيداغوجية متوازنة** التي يصطلح على تسميتها اليوم **البيداغوجية الفارقية**، و ليس استبدال بيداغوجية التحدي ذات ذلك العيب الفريد ببيداغوجية الغباء الأسوأ منها و التي ظلت لعقود تسطح مستوى كل التلاميذ من الأسفل لتسويهم جميعا بمستوى الفئة الضعيفة من بينهم. فالبيداغوجية الفارقية هي التي لا تهمل أحدا، بحيث تستمر في العناية بفرز المتفوقين و المتوسطين و بصقل مواهبهم إلى أقصى حد بتمارين التحدي في الكفايات كما هو الحال في الرياضة ، و لكنها لا تهمل في الطريق من هم من دونهم في القدرات الذهنية.

و مرة أخرى، فحالما يصبح المتنفذون بلوزارة مسؤولين عن نتائج البرامج و المناهج التي يقررون تغييرها و محاسبين على الرفع من مستوى كل تلاميذ التعليم العمومي، سيكون من مصلحته م العمل على نهج تلك **البيداغوجية الفارقية المتوازنة** التي تعطي لكل متعلم حقه بقدر مؤهلاته الذهنية، على غرار تماما ما هو عليه الحال بالتعليم الخاص، حيث من مصلحة أصحابها انتهاج تلك البيداغوجية المتوازنة من أجل الحفاظ على مختلف التلاميذ بها مخافة الإفلاس. و للمزيد من تبرير المقترح و جب التمييز بين المتعلم و الأمي في نهاية الابتدائي.

[كتابة تعليق](#) | [الرجوع إلى الصفحة الرئيسية....](#)